رفع اللبس في حكم مدح النفس

لفضيلة الشيخ أبي سفيان السلمي حفظه الله

لا إله إلا الله
الله رسول محمد
الغرباء
للإعلام
صدى الحق
AR

بسم الله الرحمن الرحيم

الطبعة الأولى

1435 هـ 2013 م

الغرباء للإعلام

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله العليم الخبير, السميع البصير, والصلاة والسلام على البشير النذير, والسراج المنير, وعلى آله وصحبه ومن سار على هديهم دون تبديل أو تغيير, أما بعد:

فقد سائلني بعض إخواني بالأمس: **«ما حكم مدح النفس؟ متى يجوز ذلك ومتى يحرم؟ متى يُرخص فيه ومتى يُجرم؟»**

فأقول: اعلم -بادئ ذي بدأ- أن المدح هو حسن الثناء, جاء في «لسان العرب» للعلامة ابن منظور رحمه الله: **«المدح: نقيض الهجاء، وهو حسن الثناء.** يقول مَدحته مِدحةً واحدةً، ومَدَحَهُ يَمدَحُهُ مَدحاً ومِدحَةً هذا قول بعضهم. والصحيح: أن المدح المصدر، والمدحة: الاسم، والجمع: مِدحٌ.
وهو المديح، والجمع المدائح والأماديح، والمدائح: جمع المديح من الشعر الذي مدح به، وقولهم تَمَدّحَ الرجل يعني تكلف أن يمدح، وتَمَدَّحَ الرجل بما ليس عنده: يعني تشبع وافتخر ويقال فلان يتمدَّحُ إذا ما كان يُقَرِّظُ نفسه ويثني عليها. والمَمَادِحُ ضد المقابح».اهـ
وفرق الإمام ابن القيم رحمه الله بين المدح والحمد فقال كما في (بدائع الفوائد): «إن الحمد إخبار عن محاسن المحمود مع حبه وتعظيمه، فلا بد من اقتران الإرادة بالخير، بخلاف المدح فإنه إخبار مجرد».اهـ

إذا علمت ذلك فاعلم أن الكثير من أهل الخير يظنون تحريم مدح النفس في كل المواطن, وهذا قول مردود باطل عاطن, **بل الصحيح التفصيل, وهذا الذي دل عليه الدليل.**

فالأصل الذي يجب تقريره؛ هو تحريم مدح النفس لغير حاجة أو ضرورة قال الله تعالى: **(فَلَا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى)** [النجم: ٣٢].
وأخرج مسلم في صحيحه عن محمد بن عمرو بن عطاء قال: سميت ابنتي برة، فقالت لي زينب بنت أبي سلمة: إن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم نهى عن هذا الاسم وسميت برة، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: **(لا تزكوا أنفسكم، إن الله أعلم بأهل البر منكم).** فقالوا: بم نسميها؟ قال: (سموها زينب).

ويتأكد تحريم مدح النفس إذا صاحبه فخر وخيلاء, وغرور وكبرياء, قال الله تعالى: **(إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا)** [النساء: ٣٧].
وقال الله تعالى: **﴿وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ (١٨) وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ (١٩)﴾** [لقمان].
وقال الله تعالى: **﴿وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَنْ تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَنْ تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولاً﴾** [الإسراء: ٣٧].
وقال الله تعالى: **﴿كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ﴾** [غافر: ٣٥].
وأخْرَج مسلم عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه عن النبي صلَّى الله عليه وآله وسلَّم قال: **(لا يدخل الجنة مَن كان في قلبه مِثقالُ ذَرَّة من كِبْر).**
وأخرج مسلم أيضاً عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلَّى الله عليه وآله وسلَّم: (احتجَّتِ النار والجنة، **فقالتْ هذه: يَدخُلُني الجبَّارون والمتكبِّرون،** وقالت هذه: يدخُلُني الضُّعفاء والمساكين، فقال الله لهذه: أنتِ عَذَابي أعذِّبُ بكِ مَن أشاء،

ورُبَّما قال: أُصيبُ بكِ مَن أشاء، وقال لهذه: أنتِ رحْمَتي أرحمُ بكِ مَن أشاء، ولكل واحدةٍ منكما مِلْؤُها).

وأخرج أحمد وغيره عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله صلَّى الله عليه وآله وسلَّم: **(قال الله عزَّ وجلَّ: الكبرياء رِدَائي، والعَظَمة إزاري، فمَن نازَعَني واحدًا منهما، قذفْتُه في النار).**

وأخرج البخاري ومسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلَّى الله عليه وآله وسلَّم: **(بينما رجلٌ يتبخْتَرَ في بُرْدَيْنِ وقدْ أعجبتْه نفسُه، خُسِفَتْ به الأرضُ، فهو يتجلْجَل فيها إلى يوم القيامة).**

وقال النُّعمان بن بَشير على المنبر: «إنَّ للشيطان مَصَالِيَ وفُخوخًا، **وإن مَصَالِي الشيطان وفُخوخَه البَطَرُ بأَنْعُم الله، والفَخْر بإعطاء الله، والكِبْر على عباد الله،** واتِّباع الْهَوَى في غير ذات الله».اهـ

وقال محمد بن الحسين بن علي: **«ما دَخَل قلبَ امرئٍ شيءٌ من الكِبْر قطُّ، إلاَّ نقَص من عقْله بقَدْر ما دَخَل من ذلك؛ قلَّ أو كَثُر»**.اهـ

ويتأكد تحريم مدح النفس -كذلك- إذا مدحها بما ليس فيها من فضائل, كما دلت على ذلك الدلائل؛ قال الله تعالى: **(لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوْا وَيُحِبُّونَ أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا فَلَا تَحْسَبَنَّهُمْ بِمَفَازَةٍ مِنَ الْعَذَابِ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (١٨٨))** [آل عمران].

قال العماد ابن كثير رحمه الله: **«يعني بذلك المرائين المتكثرين بما لم يعطوا»**.اهـ

وعن أسماء أن امرأة قالت: يا رسول الله إن لي ضرة فهل علي جناح إن تشبعت من زوجي غير الذي يعطيني؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: **(المتشبع بما لم يعط كلابس ثوبي زور).** [متفق عليه].

قال الإمام النووي رحمه الله: **«قال العلماء: معناه المتكثر بما ليس عنده بأن يظهر أن عنده ما ليس عنده يتكثر بذلك عند الناس ويتزين بالباطل فهو مذموم كما يذم من لبس ثوبي زور.**

قال أبو عبيد وآخرون: هو الذي يلبس ثياب أهل الزهد والعبادة والورع ومقصوده أن يظهر الناس أنه متصف بتلك الصفة ويظهر من التخشع والزهد أكثر مما في قلبه فهذه ثياب زور ورياء، وقيل: هو كمن لبس ثوبين لغيره وأوهم أنهما له، وقيل: هو من يلبس قميصاً واحداً ويصل بكميه كمين آخرين فيظهر أن عليه قميصين، وحكى الخطابي قولاً آخر: أن المراد هنا بالثوب الحالة والمذهب والعرب تكنى بالثوب عن حال لابسه ومعناه أنه كالكاذب القائل ما لم يكن، وقولاً آخر أن المراد الرجل الذي تطلب منه شهادة زور فيلبس ثوبين يتجمل بهما فلا ترد شهادته لحسن هيئته».اهـ

وعن حصين بن عبد الرحمن قال: كُنْتُ عِنْدَ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ فَقَالَ: أَيُّكُمْ رَأَى الْكَوْكَبَ الَّذِي انْقَضَّ الْبَارِحَةَ ؟ قُلْتُ أَنَا، ثُمَّ قُلْتُ: **أَمَا إِنِّي لَمْ أَكُنْ فِي صَلَاةٍ وَلَكِنِّي لُدِغْتُ**، قَالَ فَمَاذَا صَنَعْتَ؟ قُلْتُ: اسْتَرْقَيْتُ..» [الحديث, أخرجه مسلم].

قال الشيخ المجدد محمد بن عبد الوهاب رحمه الله في فوائد هذا الحديث: «الثامنة عشرة: **بُعد السلف عن مدحِ الإنسان بما ليس فيه»**.اهـ [التوحيد ص٨].

إذن فهذا في الشرع محرم, ولكن يجب عليك أن تعلم: **أنه يجوز مدح النفس لحاجة دينية أو دنيوية, باقتصاد وتقدير وروية, وقد دلت على ذلك أدلة مروية..**

قال الله تعالى: **(وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ)** [الحجر: ٨٨],

وقال الله تعالى: **(وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (٢١٥)** فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ (٢١٦)) [الشعراء]..

فالتواضع للأتباع وأهل الاتباع, أما الكفار والعصاة وأهل الابتداع, فيُشرع التعزز عليهم, حتى قال الإمام سفيان الثوري رحمه الله: **«تعززوا على أبناء الدنيا بترك السلام عليهم».** اهـ [انظر: ما رواه الأساطين ص٦].

وفي ذلك قوله صلى الله عليه وآله وسلم لأبي دجانة رضي الله عنه يوم أحد: **(إنها لمشية يبغضها الله عز وجل إلا في مثل هذا الموضع!)**,

وفي رواية: **(إلا في هذا الموطن)** [رواه البخاري في التاريخ الكبير (١٥٤/٣)، والطّبراني في الكبير (٦٥٠٨)، وأبو نعيم في معرفة الصّحابة (٣٦٥٧)، والبيهقي في الدلائل (٢٣٣/٣)، والخطيب في المتفق والمفترق (٧٠٧)].

وبوب الإمام البخاري في صحيحه فقال: **«باب من قال خذها وأنا ابن فلان وقال سلمة: خذها وأنا ابن الأكوع»**، وأخرج فيه عن أبي إسحاق قال سأل رجل البراء رضي الله عنه فقال: «يا أبا عمارة أوليتم يوم حنين؟ قال البراء وأنا أسمع: أما رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لم يول يومئذ؛ كان أبو سفيان بن الحارث آخذا بعنان بغلته فلما غشيه المشركون نزل فجعل يقول: **(أنا النبي لا كذب أنا ابن عبد المطلب)** قال: فما رئي من الناس يومئذ أشد منه».

قال الحافظ ابن حجر رحمه الله في الفتح: «قوله: «باب من قال خذها وأنا ابن فلان» **هي كلمة تقال عند التمدح.**

قال ابن المنير: **موقعها من الأحكام أنها خارجة عن الافتخار المنهي عنه لاقتضاء الحال ذلك.** قلت: **وهو قريب من جواز الاختيال -بالخاء المعجمة- في الحرب دون غيرها.**

قوله: «وقال سلمة: خذها وأنا ابن الأكوع» هذا طرف من حديثه المذكور في الباب الذي قبله لكنه بمعناه، وقد أخرجه مسلم بلفظه من طريق أخرى عن سلمة بن الأكوع وقال فيه: «فخرجت في آثار القوم وألحق رجلا منهم فأصكه سهما في رجله حتى خلص نصل السهم من كتفه، قال قلت: خذها وأنا ابن الأكوع، واليوم يوم الرضع» الحديث».اهـ

وقال أيضاً: «وفيه جواز الانتساب إلى الآباء ولو ماتوا في الجاهلية وفيه شهرة الرئيس نفسه في الحرب مبالغة في الشجاعة وعدم المبالاة بالعدو **وقد مدح عثمان نفسه في وقت الحاجة..** حيث قال محاججاً عن نفسه: **«ألستم تعلمون أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: (من حفر بئر رومة فله الجنة) فحفرتها ألستم تعلمون أنه قال: (من جهز جيش العسرة فله الجنة) فجهزتها»**

قال ابن حجر: **«وفيه جواز تحدث الرجل بما فيه عند الاحتياج إلى ذلك لدفع مضرة أو تحصيل منفعة، وإنما يكره ذلك عند المفاخرة والمكاثرة والعجب».**اهـ [فتح الباري ٤٠٨\٥].

وقال الإمام النووي رحمه الله: «ومعنى قوله صلى الله عليه وآله وسلم: (أنا النبي لا كذب) أي: أنا النبي حقاً فلا أفر، ولا أزول، **وفي هذا دليل على جواز قول الإنسان في الحرب: أنا فلان، وأنا ابن فلان،** ومثله قول سلمة: أنا ابن الأكوع، وقول علي رضي الله عنه: أنا الذي سمتني أمي حيدره، وأشباه ذلك، **وقد صرح بجوازه علماء السلف، وفيه حديث صحيح، قالوا: وإنما يكره قول ذلك على وجه الافتخار كفعل الجاهلية** والله أعلم».اهـ [شرح صحيح مسلم ١٢٠/١٢].

لذا فلا زال السلف والخلف يعتدون بأنفسهم ويرتجزون في ذلك عند المبارزة أو المناظرة, أو مناقشة أهل البدع والمحاورة -وسيأتي بعون الله شيء من ذلك-.

وقال الله تعالى على لسان إسماعيل عليه السلام: (سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ) [الصافات: ١٠٢].

قال العماد ابن كثير رحمه الله: «أي سأصبر وأحتسب ذلك عند الله عز وجل وصدق صلوات الله وسلامه عليه فيما وعد».اهـ

وقال الله تعالى على لسان يوسف عليه السلام: (قَالَ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ **إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ** (٥٥)) [يوسف].

قال الإمام ابن كثير رحمه الله: « فقال يوسف عليه السلام: (اجعلني على خزائن الأرض إني حفيظ عليم) **مدح نفسه، ويجوز للرجل إذا جُهل أمره للحاجة».**اهـ

وقال الإمام القرطبي رحمه الله: **« دلت الآية أيضا على أنه يجوز للإنسان أن يصف نفسه بما فيه من علم وفضل؛** قال الماوردي: وليس هذا على الإطلاق في عموم الصفات، ولكنه مخصوص فيما اقترن بوصله، أو تعلق بظاهر من مكسب، وممنوع منه فيما سواه، لما فيه من تزكية ومراءاة، ولو ميزه الفاضل عنه لكان أليق بفضله؛ فإن يوسف دعته الضرورة إليه لما سبق من حاله، ولما يرجو من الظفر بأهله».اهـ

وقال الإمام ابن القيم رحمه الله: **«فمن أخبر عن نفسه بمثل ذلك ليكثر به من يحبه الله ورسوله من الخير فهو محمود**, وهذا غير من أخبر بذلك ليتكثر بذلك عند الناس ويتعظم, وهذا ما يجازيه الله بمقت الناس والصغر في عيونهم, والأول يكبره ويكثره في قلوبهم وعيونهم وإنما الأعمال بالنيات، **وكذلك إذا أثنى الرجل على نفسه ليخلص بذلك من مظلمة وشر أو ليستوفي بذلك مقالة يحتاج فيها إلى التعريف بحاله أو ليقطع عنه أطماع السفلة فيه أو عند خطبته إلى من لا يعرف حاله».**اهـ [مفتاح دار السعادة ١\١٣٩].

وقال الله تعالى على لسان أبي المرأتين لموسى[1]: **(سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ)** [القصص: ٢٧].

قال شيخ المفسرين الطبري رحمه الله: «أَيْ فِي حُسْن الصُّحْبَة وَالْوَفَاء بِمَا قُلْت».اهـ

وقال الله تعالى: **(وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ (١١))** [الضحى].

روى ابن أبي حاتم عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه في تفسير هذه الآية, قال: **«إذا أصبت خيراً فحدث إخوانك».**اهـ

وجاء في (زوائد مسند أحمد) و(شعب الإيمان) للبيهقي عن النعمان بن بشير رضي الله عنهما عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: **(التحدث بنعمة الله شكر, وتركها كفر).**

---

(01) قال الشيخ عبد الرحمن السعدي رحمه الله: «وهذا الرجل أبو المرأتين صاحب مدين ليس بشعيب النبي المعروف كما اشتُهِر عند كثير من الناس، فإن هذا قولٌ لم يدل عليه دليل، وغاية ما يكون أن شعيبًا عليه السلام قد كانت بلده مدين، وهذه القضية جرت في مدين، فأين الملازمة بين الأمرين؟! وأيضا فإنه غير معلوم أن موسى أدرك زمان شعيب ، فكيف بشخصه؟!

ولو كان ذلك الرجل شعيبا؛ لذكره الله تعالى ولسمَّته المرأتان، وأيضا فإن شعيبا عليه الصلاة والسلام قد أهلك الله قومه بتكذيبهم إيّاه، ولم يبقَ إلا من آمن به، وقد أعاذ الله المؤمنين به أن يرضَوْا لبنتي نبيّهم بمنعهما عن الماء وصدّ ماشيتهما حتى يأتيهما رجل غريب فيُحسِن إليهما ويسقي ماشيتهما، وما كان شعيب ليرضى أن يرعى موسى عنده ويكون خادما له وهو أفضل منه وأعلى درجة؛ إلا أن يقال: هذا قبل نبوة موسى؛ فلا منافاة. وعلى كل حال، لا يُعتَمد على أنه شعيب النبّي بغير نقل صحيح عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم. والله أعلم».
اهـ [تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان ص ١٢٧٨-١٢٧٩].

وأخرج البيهقي عن سعيد الجريري أنه قال: **«كان يقال: إن تعداد النعم من الشكر»**.اهـ

وأخرج أيضاً عن الفضيل بن عياض أنه قال: **«كان يقال: من شكر النعمة التحدث بها»**.اهـ

وأخرج أيضاً عن أبي الحواري قال: جلس الفضيل بن عياض وسفيان بن عيينة ليلة إلى الصباح يتذاكرون في النعم: **«أنعم الله علينا في كذا, أنعم الله علينا في كذا»**.اهـ

وقال الإمام ابن القيم رحمه الله: «الشيء الواحد تكون صورته واحدة, وهو ينقسم إلى محمود ومذموم؛ فمن ذلك التحدث بالنعمة شكراً, وفخراً بها.

الأول: **القصد بها إظهار فضل الله وإحسانه وإشادتها..**

الثاني: القصد بها الاستطالة على الناس والبغي عليهم والجور والتعدي وإهانتهم. وهذا هو المذموم».اهـ

وقد ألف الإمام جلال الدين السيوطي كتاباً أسماه: **«نزول الرحمة؛ في التحديث بالنعمة»**, وقد قال فيه ص٣٢-٣٣: «ومنها إذا لم يُنصف أو نُوزع أو عُورض أو كان بين قوم لا يعرفون مقامه, واستدلوا لذلك بأن أبا بكر الصديق رضي الله عنه لما ولي الخلافة خطب وقال: «أما بعد أيها الناس: فإني قد وليت عليكم ولست بخيركم» على قاعدة التواضع وهضم نفسه.

ثم بلغه عن بعض الناس كلام فخطب فقال: «ألست بأحق الناس بها؟! ألست أول من أسلم؟! ألست صاحب كذا؟! ألست صاحب كذا؟!...» أخرجه الترمذي وابن ماجه.. فحدث بمناقبه وأثنى على نفسه بمحاسنه عندما تكلم بعضهم في مبايعته».اهـ

وأخرج الإمام مسلم في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: **(أنا سيد ولد آدم يوم القيامة وأول من ينشق عنه القبر وأول شافع وأول مشفع)**.

قال الإمام النووي رحمه الله: «وقوله صلى الله عليه وآله وسلم: (أنا سيد ولد آدم) لم يقله فخراً, بل صرح بنفي الفخر في غير مسلم, في الحديث المشهور: (أنا سيد ولد آدم ولا فخر),

وإنما قاله لوجهين: أحدهما: امتثال قوله تعالى: (وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ)، والثاني: أنه من البيان الذي يجب عليه تبليغه إلى أمته؛ ليعرفوه ويعتقدوه، ويعملوا بمقتضاه، ويوقروه صلى الله عليه وآله وسلم بما تقتضي مرتبته كما أمرهم الله تعالى». اهـ [شرح صحيح مسلم ٣٧/١٥, وانظر: ١٢١/١٥].

وعند البخاري في صحيحه عن جبير بن مطعم رضي الله عنه: أنه بينما هو يسير مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ومعه الناس مقفله من حنين, فعلقه الناس يسألونه حتى اضطروه إلى سمرة فخطفت رداءه فوقف النبي صلى الله عليه وآله وسلم فقال: (أعطوني ردائي لو كان لي عدد هذه الأشجار نعما لقسمته بينكم, **ثم لا تجدوني بخيلا ولا كذوبا ولا جبانا).**

قال الإمام ابن عبد البر رحمه الله في شرح هذا الحديث: **«وفيه جواز مدح الرجل الفاضل الجليل لنفسه ونفيه عن نفسه ما يعيبه بالحق الذي هو فيه وعليه إذا دفعت إلى ذلك ضرورة أو معنى يوجب ذلك فلا بأس بذلك,** وقد قال الله عز وجل حاكيا عن يوسف عليه السلام أنه قال: (إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ), وقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: (أنا أول من تنشق عنه الأرض، وأول شافع وأول مشفع وأنا سيد ولد آدم ولا فخر) ومثل هذا كثير في السنن **وعن علماء السلف لا ينكر ذلك إلا من لا علم له بآثار من مضى».**اهـ [التمهيد ٣٩/٢٠].

وأخرج ابن عساكر عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه أنه أتاه رجل فأثنى عليه فأطراه -وكان بلغه عنه قبل ذلك شيء- فقال له علي بن أبي طالب رضي الله عنه: **«أنا فوق ما في نفسك!».**اهـ

وأخرج أبو نعيم في الحلية عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال: **«والله ما نزلت آية إلا وقد علمت فيم أنزلت وأين أنزلت, إن ربي وهب لي قلباً عقولاً, ولساناً سؤولاً».** اهـ

وأخرج أيضاً عنه رضي الله عنه أنه قال: **«أنا فقأت عين الفتنة».**اهـ

وعن الزهري قال: بعث رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم سرية فيها سعد بن أبي وقاص إلى جانب من الحجاز يدعى رابغ, وهو من جانب الجحفة, فانكفأ المشركون على المسلمين, فحماهم سعد يومئذ بسهامه, فكان هذا أول قتال في الإسلام, فقال سعد:

ألا هل أتى رسولَ الله أني * حَميتُ صحابتي بصدورِ نَبْلي**
فما يعتدُّ رامٍ في عدوٍّ * بسهم يا رسولَ اللهِ قَبْلي**

[سير أعلام النبلاء ١٠١/١, وانظر: السيرة لابن هشام ٥٩٤/١-٥٩٥, والإصابة ١٦٤/٤, والطبقات ١٠٠/٣].

وأخرج الإمام البخاري عن قَيْسٍ قال سمعت سَعْدًا -أي: ابن وقاص- رضي الله عنه يقول: «**إِنِّي لَأَوَّلُ الْعَرَبِ رَمَى بِسَهْمٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ** وَكُنَّا نَغْزُو مع النبي صلى الله عليه وآله وسلم وما لنا طَعَامٌ إلا وَرَقُ الشَّجَرِ حتى إِنَّ أَحَدَنَا لَيَضَعُ كما يَضَعُ الْبَعِيرُ أو الشَّاةُ ما له خِلْطٌ ثُمَّ أَصْبَحَتْ بَنُو أَسَدٍ تُعَزِّرُنِي على الْإِسْلَامِ لقد خِبْتُ إِذًا وَضَلَّ عَمَلِي» وَكَانُوا وَشَوْا بِهِ إلى عُمَرَ قالوا لا يُحْسِنُ يُصَلِّي.اهـ

قال الإمام ابن الجوزي رحمه الله تعليقاً على قول سعد رضي الله عنه: «**فإن قال قائل كيف مدح هذا الرجل نفسه ومن شأن المؤمن التواضع؟!**

فالجواب: أنه إذا اضطر الإنسان إلى إظهار فضله حسن إظهاره؛ كما قال يوسف عليه السلام: (إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ) [يوسف: ٥٥]. فهذا لما عيره الجهال اضطر إلى ذكر فضله».اهـ

ثم قال رحمه الله: «**وأعلم أن المدحة إذا خلت عن البغي والاستطالة على أهل الحق وكان مقصود قائلها إقامة حق أو إبطال جور أو إظهار نعمة لم يلم**, فلو أن قائلاً إني لحافظ لكتاب الله عالم بتفسيره وبالفقه في الدين يقصد بهذا إظهار الشكر أو تعريف المتعلم ما عنده ليستفيده إذ لو لم يبين ذلك لم يعلم ما عنده فلم يطلب لم يستقبح ذلك.

ولهذا المعنى قال يوسف عليه السلام: **(إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ)**, وقال نبينا عليه الصلاة والسلام: **(أنا أكرم ولد آدم على ربه)**.

وقال عمر حين أعطى السائل قميصه: «والله لا أملك غيره».

وقال علي: **«سلوني عن كتاب الله فو الله ما من آية إلا وأنا أعلم أبليل نزلت أم بنهار أم في سهل نزلت أم في جبل».**

وقال ابن مسعود: **«والله ما نزلت في القرآن سورة إلا أنا أعلم حيث أنزلت ولو أعلم أحداً أعلم مني بكتاب الله تبلغه الإبل لأتيته».**

وقال الحباب بن المنذر: **«أنا جذيلها المحكك وعذيقها المرجب».**

وقال الأحنف بن قيس: **«ما جلس إلي اثنان قط ثم انصرفا من عندي فذكرتهما بسوء».**

وقال سعيد بن جبير: **«قرأت القرآن في ركعة في الكعبة».**

وقال مورق العجلي: **«ما قلت في الغضب شيئا قط فندمت عليه في الرضا».**

وقال ثابت البناني: **«ما تركت سارية في الجامع إلا صليت عندها وبكيت عندها».**

وقد كانت الجاهلية تصف محاسنها لتبعث على الاقتداء بها قال حاتم طيء: **«والله ما خاتلت جارة لي قط ولا ائتمنت على أمانة إلا أديتها ولا أتي أحد قط من قبلي بسوء»**

وقال:

ولا تشتكيني جارتي غير أنني * إذا غاب عنها بعلها لا أزورها**
سيبلغها خيري ويرجع بعلها * إليها ولم تقصر علي ستورها».**

[كشف المشكل ١/٢٤٠].

وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: **«وَلَقَدْ عَلِمَ أَصْحَابُ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وآله وَسَلَّمَ أَنِّي أَعْلَمُهُمْ بِكِتَابِ اللَّهِ، وَلَوْ أَعْلَمُ أَنَّ أَحَدًا أَعْلَمُ مِنِّي لَرَحَلْتُ إِلَيْهِ».** اهـ [متفق عليه].

وفي رواية عند ابن جرير أنه قال: **«والذي لا إله غيره ما نزلت آية من كتاب الله إلا وأنا أعلم فيمن أنزلت، فلو أعلم بمكان أحد أعلم بكتاب الله مني تناله المطايا لأتينه».**اهـ

قال الإمام النووي رحمه الله في شرحه لصحيح مسلم: **«وَفِي هَذَا الْحَدِيثِ جَوَازُ ذِكْرِ الْإِنْسَانِ نَفْسَهُ بِالْفَضِيلَةِ وَالْعِلْمِ وَنَحْوِهِ لِلْحَاجَةِ،** وَأَمَّا النَّهْيُ عَنْ تَزْكِيَةِ النَّفْسِ فَإِنَّمَا هُوَ لِمَنْ زَكَّاهَا وَمَدَحَهَا لِغَيْرِ حَاجَةٍ، بَلْ لِلْفَخْرِ وَالْإِعْجَابِ، وَقَدْ كَثُرَتْ تَزْكِيَةُ النَّفْسِ مِنَ الْأَمَاثِلِ عِنْدَ الْحَاجَةِ كَدَفْعِ شَرٍّ عَنْهُ بِذَلِكَ، أَوْ تَحْصِيلِ مَصْلَحَةٍ لِلنَّاسِ، أَوْ تَرْغِيبٍ فِي أَخْذِ الْعِلْمِ عَنْهُ، أَوْ نَحْوِ ذَلِكَ.

فَمِنَ الْمَصْلَحَةِ قَوْلُ يُوسُفَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ).

وَمِنْ دَفْعِ الشَّرِّ قَوْلُ عُثْمَانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فِي وَقْتِ حِصَارِهِ أَنَّهُ جَهَّزَ جَيْشَ الْعُسْرَةِ، وَحَفَرَ بِئْرَ رُومَةَ.

وَمِنَ التَّرْغِيبِ قَوْلُ ابْنِ مَسْعُودٍ هَذَا، وَقَوْلُ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ: مَا بَقِيَ أَحَدٌ أَعْلَمُ بِذَلِكَ مِنِّي». اهـ

وعن عائشة رضي الله عنها: أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: (اهجوا قريشاً، فإنه أشد عليها من رشق بالنبل) فأرسل إلى ابن رواحة فقال: اهجهم فهجاهم فلم يُرض، فأرسل إلى كعب بن مالك، ثم أرسل إلى حسان بن ثابت، فلما دخل عليه، قال: حسان: **قد آن لكم أن ترسلوا إلى هذا الأسد الضارب بذنبه، ثم أدلع لسانه فجعل يحركه، ثم قال: والذي بعثك بالحق! لأفرينهم بلساني فري الأديم،** فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: (لا تعجل إن أبا بكر أعلم قريشاً بأنسابها، وإن لي فيهم قرابة، حتى يلخص لك نسبي..). [الحديث؛ أخرجه مسلم].

وقد قال حسان بن ثابت رضي الله عنه من جملة ما قال:

لِساني صارِمٌ لا عَيبَ فيهِ * وَبَحري لا تُكَدِّرُهُ الدِلاءُ!**

وعن محمد بن سيرين عن أنس: أنه دخل على أخيه البراء وهو يتغنَّى فقال: «تتَغنَّى؟» قال: **«أتخشى علي أن أموتَ على فراشي وقد قتلت تسعة وتسعين نفساً من المشركين مبارزة سوى ما شاركت فيه المسلمين؟!»** وفي رواية: «يا أخي تتغنى بالشعر وقد أبدلك الله به القرآن؟!».

وقال حماد بن سلمة زعم ثابت عن أنس قال: دخلت على البراء وهو يتغنى ويُرنم قوسه فقلت: «إلى متى هذا؟!» قال: **«أتراني أموت على فراشي؟! والله لقد قتلت بضعا وتسعين».** اهـ [سير أعلام النبلاء ١/١٩٨].

وقد روى أهل السير والمغازي أنه لما استحر القتل في معركة اليمامة وأخذ الراية سالم مولى أبي حذيفة رضي الله عنه, قال له المهاجرون: يا سالم, إنَّا نخاف أن نؤتى من قِبلك! فقال سالم: **«بئس حاملُ القرآن أنا، إن أُتيتم من قبلي»!**

وكلام سالم مولى أبي حذيفة من جنس الدفاع عن النفس ورد التهم, وإزالة ما يتعلق بها من وهم, وقد روى البخاري ومسلم عن صفية أمّ المؤمنين رضي الله عنها: «أنها جاءتْ رسولَ الله صلى الله عليه وآله وسلم تزُورُه في اعتكافِه في المسجد في العشر الأواخر من رمضان فتحدّثتْ عنده ساعة ثم قامت تنقلب، فقام النبي صلى الله عليه وآله وسلم يقلّبُها حتى إذا بلغت بابَ المسجد عند باب أمّ سلمة، مرّ رجلان من الأنصار فسلّمَا على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، فقال لهما النبي صلى الله عليه وآله وسلم: **(على رَسْلِكُمَا إنما هي صفية بنت حيي)**، فقالا: سبحان الله يا رسول الله, وكبُر عليهما، فقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم: (إنّ الشيطان يبلغ من الانسان مبلغ الدم وإني خشيتُ أن يقذِفَ في قلوبكما شيئاً)».

قال الحافظ ابن حجر رحمه الله: « والمحصل من هذه الروايات أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم لم ينسبهما إلى أنهما يظنان به سوءا لما تقرر عنده من صدق إيمانهما, ولكن خشي عليهما أن يوسوس لهما الشيطان ذلك لأنهما غير معصومين فقد يفضي بهما ذلك إلى الهلاك **<u>فبادر إلى إعلامهما حسما للمادة وتعليما لمن بعدهما إذا وقع له مثل ذلك كما قاله الشافعي رحمه الله تعالى.</u>**

وفيه التحرز من التعرض لسوء الظن والاحتفاظ من كيد الشيطان والاعتذار, قال ابن دقيق العيد: **وهذا متأكد في حق العلماء ومن يقتدى به فلا يجوز لهم أن يفعلوا فعلا يوجب سوء الظن بهم وإن كان لهم فيه مخلص لأن ذلك سبب إلى إبطال الانتفاع بعلمهم,**

ومن ثم قال بعض العلماء: ينبغي للحاكم أن يبين للمحكوم عليه وجه الحكم إذا كان خافيا نفيا للتهمة. ومن هنا يظهر خطأ من يتظاهر بمظاهر السوء ويعتذر بأنه يجرب بذلك على نفسه, وقد عظم البلاء بهذا الصنف والله أعلم».اهـ [فتح الباري ٣٢٦/٦].

وقد فصل أئمة الإسلام, وعلماؤه العظام, **«مسألة مدح النفس»** خير تفصيل, وتكلموا فيها بكلام جزيل, ونحن نورد -هاهنا- بعض تلك النقول, عن أولئك الفحول:

قال الإمام النووي رحمه الله: **«بابُ مدح الإنسان نفسه وذكر محاسنه:** قال اللّه تعالى: (فَلا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ) [النجم: ٣٢].

اعلم أن ذكرَ محاسن نفسه ضربان: مذموم، ومحبوب.

فالمذمومُ أن يذكرَه للافتخار وإظهار الارتفاع والتميّز على الأقران وشبه ذلك.

والمحبوبُ أن يكونَ فيه مصلحة دينية، وذلك بأن يكون آمراً بمعروف أو ناهياً عن منكر أو ناصحاً أو مشيراً بمصلحة أو معلماً أو مؤدباً أو واعظاً أو مذكِّراً أو مُصلحاً بين اثنين أو يَدفعُ عن نفسه شرّاً أو نحو ذلك.

فيذكر محاسنَه ناوياً بذلك أن يكون هذا أقربَ إلى قَبول قوله واعتماد ما يذكُره، أو أن هذا الكلام الذي أقوله لا تجدونه عند غيري فاحتفظوا به أو نحو ذلك.

وقد جاء في هذا المعنى ما لا يحصى من النصوص كقول النبيّ صلى اللّه عليه وآله وسلم: **(أنا النَّبِي لا كَذِبْ).**

(أنا سَيِّدُ وَلَد آدَم).

(أنا أوَّلُ مَنْ تَنْشَقُّ عَنْهُ الأرْضُ).

(أنا أعْلَمُكُمْ باللَّهِ وأتْقاكُمْ).

(إنِّي أبِيتُ عنْدَ ربِّي») وأشباهه كثيرة..

وقال يوسف صلى اللّه عليه وسلم: (اجْعَلْني على خَزَائِنِ الأرْضِ **إنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ**) [يوسف: ٥٥]

وقال شعيب صلى اللّه عليه وسلم[1]: **(سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ)** [القصص: ٢٧].

وقال عثمان رضي اللّه عنه حين حُصر ما رويناه في صحيح البخاري أنه قال: **«ألستم تعلمون أنَّ رسولَ اللّه صلى اللّه عليه وآله وسلم قال: (مَنْ جَهَّزَ جَيْشَ العُسْرَةِ فَلَهُ الجَنَّةُ) فجهّزتهم؟ ألستم تعلمون أن رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله وسلم قال: (مَنْ حَفَرَ بِئْرَ رُومَةَ فَلَهُ الجَنَّةُ) فحفرتها؟ فصدّقوه بما قاله.**

وروينا في صحيحيهما، عن سعد بن أبي وقاص رضي اللّه عنه أنه قال حين شكاه أهل الكوفة إلى عمر بن الخطاب رضي اللّه عنه وقالوا: لا يُحسن يصلي، فقال سعد: **واللّه إنّي لأول رجل من العرب رمى بسهم في سبيل اللّه تعالى، ولقد كنّا نغزو مع رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله وسلم، وذكر تمام الحديث.**

وروينا في صحيح مسلم، عن عليّ رضي اللّه عنه قال: **«والذي فلق الحبّة وبرأ النسمةَ، إنه لعهدُ النبيّ صلى اللّه عليه وآله وسلم إليّ (أنه لا يحبني إلا مؤمنٌ ولا يبغضني إلا منافق).**

قلتُ: بَرَأَ مهموز معناه خلق؛ والنسمة: النفس.

وروينا في صحيحيهما، عن أبي وائل قال: خطبنا ابنُ مسعود رضي اللّه عنه فقال: واللّه لقد أخذتُ من في رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله وسلم بضعاً وسبعين سورة، **ولقد علمَ أصحابُ رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم أني مِنْ أعلمهم بكتاب اللّه تعالى وما أنا بخيرهم، ولو أعلم أن أحداً أعلمُ منّي لرحلتُ إليه.**

وروينا في صحيح مسلم، **عن ابن عباس رضي اللّه عنهما أنه سئل عن البدنة إذا أزحفت، فقال: «على الخبير سقطتَ»** ـ يعني نفسَه ـ وذكر تمام الحديث.

ونظائر هذا كثيرة لا تنحصر، وكلُّها محمولة على ما ذكرنا، وباللّه التوفيق». اهـ [الأذكار ص٢٤٦-٢٤٧].

وقال الإمام ابن مفلح رحمه الله: «فصل: في تزكية النفس المذمومة ومدحها بالحق للمصلحة أو شكر النعمة:

---

(1) سبق التنبيه لهذا الخطأ, ولكن كما قيل: لكل جواد كبوة, ولكل سيف نبوة, ولكل عالم هفوة!

قال القاضي أبو يعلى رحمه الله في قصة يوسف عليه السلام يعني قوله: (اجعلني على خزائن الأرض إني حفيظ عليم) **فيها دلالة على أنه يجوز للإنسان أن يصف نفسه بالفضل عند من لا يعرفه وأنه ليس من المحظور.**

وقال ابن عقيل في الفنون سؤال عن قوله: (فلا تزكوا أنفسكم)؛ «كيف ساغ لعمر أن يزكي نفسه حين سأله رجل عن صيد قتله فقال: اصبر حتى يأت حكم آخر فيحكم لنفسه إنه أحد العدلين؟

قيل: إنما نهى عن تزكية النفس بالمدح والإطراء المورِّث عجباً وتيهاً ومرحاً وما قصد عمر رضي الله عنه ذلك، إنما قصد فصل حكم وهو من نفسه على ثقة من ذلك فصار كقوله عن الملائكة عليهم السلام: **(وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُّونَ (١٦٥) وَإِنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ (١٦٦)) [الصافات] فدل على أنه لا يتناول إلا من أخرجه مخرج الافتخار.**

ولذلك قال: **(أنا سيد ولد آدم ولا فخر)** فنفى الفخر الذي هو الإعجاب». انتهى كلامه.

وقال ابن الجوزي: عن قصة يوسف عليه السلام: «فإن قيل كيف مدح نفسه بهذا القول ومن شأن الأنبياء والصالحين التواضع؟!

فالجواب: **أنه لما خلا مدحه لنفسه من بغي وتكبر وكان مراده به الوصول إلى حق يقيمه، وعدل يحييه وجور يبطله، كان ذلك جميلاً جائزاً.**

وقد قال نبينا صلى الله عليه وسلم: **(أنا أكرم ولد آدم على ربه).**

وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: **«والله ما آية إلا وأنا أعلم بليل نزلت أم بنهار».**

وقال ابن مسعود رضي الله عنه: **«لو أعلم أحدا أعلم بكتاب الله مني تبلغه الإبل لأتيته».**

فهذه الأشياء خرجت مخرج الشكر لله وتعريف المستفيد ما عند المفيد، ذكر هذا محمد بن القاسم». انتهى كلام ابن الجوزي.

وفي الصحيحين عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: **«والذي لا إله غيره ما من كتاب الله سورة إلا وأنا أعلم حيث أنزلت وما من آية إلا وأنا أعلم فيما أنزلت ولو أعلم أحدا هو أعلم بكتاب الله مني تبلغه الإبل لركبت إليه».**

وفي الصحيحين عن شقيق بن سلمة عن ابن مسعود: **«لقد علم أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أني أعلمهم بكتاب الله ولو أعلم أن أحدا أعلم به مني لرحلت إليه»** قال شقيق: «فجلست في حلق أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فما سمعت أحدا يرد ذلك عليه ولا يعيبه» زاد البخاري بعد قوله: «بكتاب الله وما أنا بخيرهم».

وفي بعض طرقه من أعلمهم وفي ترجمة أبي الدرداء رضي الله عنه: **«سلوني فوالله لئن فقدتموني لتفقدن رجلا عظيما»**.

وقال أبو بكر بن عياش لما حضرته الوفاة وبكت ابنته: **«يا بنية لا تبكي أتخافين أن يعذبني الله وقد ختمت في هذه الزاوية أربعة وعشرين ألف ختمة»**.

وقال أبو بكر بن عياش: **«نظرت إلى أقرأ الناس فلزمته عاصما، ثم نظرت إلى أفقه الناس فلزمته مغيرة، فأين تجد مثلي؟!»**

وقال ابن طاهر المقدسي الحافظ: «سمعت أصحابنا بهراة يحكون أن أبا محمد عبد الرحمن بن أبي شريح الأنصاري قال: كنت أقرأ على أبي القاسم البغوي ببغداد فلما كان في بعض الأيام وكنت أقرأ عليه جزءا وقد وضع رأسه بين ركبتيه فرفع رأسه وقال: **كأني بهم إذا مت يقولون: مات البغوي ولا يقولون: مات جبل العلم.**

ثم وضع رأسه بين ركبتيه واستند فلما فرغت من قراءة الجزء قلت: كم قرأت عليك؟ فلم يجبني فحركته فإذا به قد مات رحمه الله».اهـ [الآداب الشرعية والمنح المرعية ٣/٤٦٤-٤٦٦].

وعلى ما تقدم, مضى من تقدم, ولا يخفى على قارئ نهم, في سير الرجال والتراجم, قولهم عن كثير من العلماء, والأئمة والنبلاء: **«لم ير مثل نفسه»!** وذلك ليس على سبيل الكبر أو العجب أو الغرور, ولكن لبعض المصالح التي أشرنا إليها في هذه السطور.

فهذا «ابن راهويه يقول: ما رأيت مثل يحيى بن يحيى، **وما رأى مثل نفسه**».

و»قال أحمد بن حنبل: ما رأى يحيى بن يحيى مثل نفسه، **وما رأى الناس مثله**».

و»قال ورقاء: **لم ير الثوري مثل نفسه**».

«وعن ابن عيينة قال: ما رأيت رجلا أعلم بالحلال والحرام من سفيان الثوري، ولا رأى **هو مثل نفسه**».

و«عن شعيب بن حرب قال: **ما لقي ابن المبارك مثل نفسه**».

و«قال أبو ثور الفقيه: **ما رأيت مثل الشافعي ولا رأى مثل نفسه**».

و«كان الحاكم أبو عبد الله يقول: **ما رأى الدارقطني مثل نفسه**».

و«قال إبراهيم بن أورمة: ما رأيت مثل محمد بن عاصم، **ولا رأى مثل نفسه**».

و«قال عبد الله بن سعد النيسابوري: ما رأيت مثل إبراهيم بن أبي طالب، **ولا رأى هو مثل نفسه**».

و«قال أبو سعد السمعاني: **لم ير أبو القاسم -القشيري- مثل نفسه، في كماله وبراعته،** جمع بين الشريعة والحقيقة».

و«قال علي بن المديني: دعوا هذا؛ **فإن محمد بن إسماعيل -البخاري- لم ير مثل نفسه**».

و«قال عبد الواحد بن غياث: **ما رأى أبو زرعة مثل نفسه**».

و«قال الفقيه أبو عمران إبراهيم بن هاني الفقيه: لم أر مثل إسحاق بن حنيفة، **ولا رأى مثل نفسه**».

و«قال أبو الفضل يعقوب الهروي: ما رأينا مثل عثمان بن سعيد، **ولا رأى هو مثل نفسه**».

و«قال الحاكم: سمعت أبي يقول: سمعت ابن خزيمة -وحضر مجلس أبي القاسم عبد الرحمن بن محمد بن الحسين الخراساني- فلما فرغ من الوعظ؛ قال ابن خزيمة: **ما رأينا مثل أبي القاسم ولا رأي مثل نفسه**».

ومثل هذا كثير يصعب حصره, وحسب القارئ ما تم ذكره, ولو كان في تتبع مثل ذلك فائدة طائلة, لملأت منه كراسة كاملة!

وختاماً أخط للقراء, بعض ما يحضرني عن العلماء, في مدحهم لأنفسهم, مما لم تتقدم الإشارة لهم.

جاء في ديوان الإمام محمد بن إدريس الشافعي رحمه الله أنه قال:

وَلَولا الشِعرُ بِالعُلَماءِ يُزري * لَكُنتُ اليَومَ أَشعَرَ مِن لَبيدِ**
وَأَشجَعَ في الوَغى مِن كُلِّ لَيثٍ * وَآلِ مُهَلَّبٍ وَبَني يَزيدِ**
وَلَولا خَشيَةُ الرَحمَنِ رَبّي * حَسِبتُ الناسَ كُلَّهُمُ عَبيدي!**

وقال الإمام ابن الجوزي رحمه الله: «فإني أذكر نفسي ولي همة عالية وأنا في المكتب ابن ست سنين وأنا قرين الصبيان الكبار، **قد رزقت عقلاً وافرًا في الصغر يزيد على عقل الشيوخ**، فما أذكر أني لعبت في الطريق مع الصبيان قط ولا ضحكت ضحكًا خارجًا، حتى أني كنت ولي سبع سنين أو نحوها أحضر رحبة الجامع فلا أتخير حلقة مشعبة، بل أطلق المحدث فيتحدث باليسير، فأحفظ جميع ما أسمعه وأذهب إلى البيت فأكتبه». اهـ [لفتة الكبد في نصيحة الولد ص١٠].

وقال أيضاً: «ثم أُلهمت الزهد فسردت الصوم، وتشاغلت بالتقلل من الطعام، وألزمت نفسي الصبر فاستمرت، وشمرت ولازمت وعالجت السهر، ولم أقنع بفن من العلوم، بل كنت أسمع الفقه والوعظ والحديث، وأتبع الزهاد، ثم قرأت اللغة ولم أترك أحدًا ممن يروي ويعظ، ولا غريبًا يقدم إلا وأحضره، وأتخير الفضائل، وكنت إذا عرض لي أمران أقدم في أغلب الأحوال حق الحق، فأحسن الله تدبيري وتربيتي وأجراني على ما هو الأصلح لي ودفع عني الأعداء والحساد ومن يكيدني، هيأ لي أسباب العلم، وبعث إلي الكتب من حيث لا احتسب، ورزقني الفهم وسرعة الحفظ والخط وجودة التصنيف، ولم يعوزني شيئًا من الدنيا، بل ساق إلي من الرزق مقدار الكفاية وأزيد، ووضع لي القبول في قلوب الخلق فوق الحد، وأوقع كلامي في نفوسهم فلا يرتابون بصحته، **وقد أسلم على يدي نحو مائتين من أهل الذمة ولقد تاب في مجالسي أكثر من مائة ألف، وقد قطعت أكثر من عشرين ألف سالف مما يتعاناه الجهال**».اهـ [لفتة الكبد في نصيحة الولد ص١١].

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله كما في مجموع الفتاوى: «.. أنا أعلم أن أقواما يكذبون علي؛ كما قد كذبوا عليّ غير مرّة...» -إلى أن قال-: **«وتكلمت بكلام احتجت إليه؛ مثل أن قلت: مَن قام بالإسلام أوقات الحاجة غيري؟ ومَن الذي أوضح دلائله وبيّنه؟ وجاهد أعداءه وأقامه لما مال؟! حين تخلى عنه كل أحد؛ ولا أحد ينطق بحجته ولا أحد يجاهد عنه وقمت مظهرا لحجته مجاهدا عنه مرغبا فيه..»**.اهـ

وقال رحمه الله في مناظرته للصوفية البطائحية: **«فَمَنْ مَعَهُ ذَهَبٌ فَلْيَأْتِ بِهِ إلَى سُوقِ الصَّرْفِ إلَيَّ عِنْدَ الْجَهَابِذَةِ الَّذِينَ يَعْرِفُونَ الذَّهَبَ الْخَالِصَ مِنْ الْمَغْشُوشِ وَمِنْ الصُّفْرِ؛ لَا يَذْهَبُ إلَيَّ عِنْدَ أَهْلِ الْجَهْلِ بِذَلِكَ»**.اهـ

وقال في صدر لاميته في العقيدة:

يا سائلي عن مذهبي وعقيدتي * رُزِق الهدى مَن للهداية يسأل**
اسمع كلام مَحَقِّقٍ في قوله * لا ينثني عنه ولا يتبدل**

وقال الإمام ابن قيم الجوزية رحمه الله في آخر مفتتح كتابه (حادي الأرواح) ص٢٣: «وهذا كتاب اجتهدت في جمعه وترتيبه وتفصيله وتبويبه». إلى أن قال عن كتابه: **«مشتمل من بدائع الفوائد وفرائد القلائد، على ما لعل المجتهد في الطلب لا يظفر به فيما سواه من الكتب..»**.اهـ

وقال في كتابه (مدارج السالكين) في آخر كلامه عن بعض لطائف أسرار التوبة: **«فهذه نبذة من بعض لطائف أسرار التوبة لا تستهزئ بها، فلعلك لا تظفر بها في مصنَّف آخر البتّة»**.اهـ

وقال الحافظ ابن حجر العسقلاني رحمه الله: «وأنا شربته -أي: ماء زمزم- مرة, وسألت الله وأنا حينئذ في بداية طلب الحديث أن يرزقني حالة الذهبي في حفظ الحديث, ثم حججت بعد مدة تقرب من عشرين سنة **وأنا أجد من نفسي المزيد على تلك المرتبة, فسألته رتبة أعلى منها فأرجو الله أن أنال ذلك**».اهـ [جزء حديث: (ماء زمزم لما شرب له) ص١٩١-١٩٢].

وقال أيضاً رحمه الله في مقدمة كتابه (الإصابة في تمييز الصحابة): **«وهذا القسم الرابع لا أعلم من سبقني إليه، ولا من حام طائر فكره عليه، وهو الضالة المطلوبة في هذا الباب الزاهر، وزبدة ما يمخضه من هذا الفن اللبيب الماهر»**.اهـ

وروي أن الإمام تاج الدين السبكي رحمه الله وشى به أعداؤه إلى السلطان الملك الأشرف شعبان بن حسين, فكتب إليه السبكي ورقة بالجواب عما قاله أعداؤه, فقال في آخرها: **«أنا اليوم مجتهد الدنيا على الإطلاق ولا يستطيع أحد أن يرد على هذه الكلمة!»**.اهـ [نزول الرحمة ص٣٨].

وحكى القاضي تاج الدين عن والده تقي الدين أنه طلب من خازن كتب المدرسة الظاهرية أن يعيره من الخزانة كتاباً, فتمنع عليه, فقال: **«مثلي ما يحتاج, بل كتب هذه الخزانة محتاجة إلى مثلي يجيء بها»**, فاستنكر الخازن منه هذه الكلمة فشكاه إلى الشيخ قطب الدين السنباطي -وهو شيخ المدرسة المذكورة- فقال السنباطي للخازن: **«اسكت فإن الرجل ما رأى مثل نفسه!»**.اهـ [نزول الرحمة ص٣٨-٣٩].

وقال الإمام جلال الدين السيوطي رحمه الله: **«والذي أعتقده أن الذي وصلت إليه في هذه العلوم السبعة لم يصل إليه ولا وقف عليه أحد من أشياخي, فضلاً عمن دونهم, ولو شئت أن أكتب في كل مسألة مصنفاً بأقوالها وأدلتها النقلية والقياسية ومداركها ونقوضها وأجوبتها؛ لقدرت على ذلك من فضل الله لا بحولي ولا بقوتي»**.اهـ [حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة ١٤١/١].

وقال أيضاً: **«وقد كملت عندي الآن آلات الاجتهاد بحمد الله تعالى؛ أقول ذلك تحدثاً بنعمة الله تعالى لا فخراً؛ وأي شيء في الدنيا حتى يطلب تحصيلها بالفخر، وقد أزف الرحيل، وبدا الشيب، وذهب أطيب العمر»**.اهـ [حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة ١١٢/١].

وقال في أرجوزة المجددين:

وَهَذِهِ تَاسِعَةُ الْمِئِينِ قَدْ * أَتَتْ وَلَا يُخْلَفُ مَا الْهَادِي وَعَدَ**
وَقَدْ رَجَوْتُ أَنَّنِي الْمُجَدِّدُ * فِيهَا فَفَضْلُ اللَّه لَيْسَ يُجْحَدُ**

وقال الإمام القحطاني في نهاية نونيته عن نفسه:

أنا تمرة الأحباب حنظلة العدا * أنا غصة في حلق من عاداني**
وأنا المحب لأهل سنة أحمد * وأنا الأديب الشاعر القحطاني**
سل عن بني قحطان كيف فعالهم * يوم الهياج إذا التقى الزحفان**
سل كيف نثرهم الكلام ونظمهم * وهما لهم سيفان مسلولان**
نصروا بألسنة حداد سلق * مثل الأسنة شرعت لطعان**
سل عنهم عند الجدال إذا التقى * منهم ومن أضدادهم خصمان**
نحن الملوك بنو الملوك وراثة * أسد الحروب ولا النسا بزوان**

وقال أيضاً عن نونيته:

وأنا الذي حبرتها وجعلتها * منظومة كقلائد المرجان**
ونصرت أهل الحق مبلغ طاقتي * وصفعت كل مخالف صفعان**
مع أنها جمعت علوما جمة * مما يضيق لشرحها ديواني**
أبياتها مثل الحدائق تجتنى * سمعا وليس يملهن الجاني**
وكأن رسم سطورها في طرسها * وشي تنمقه أكف غواني**
والله أسأله قبول قصيدتي * مني وأشكره لما أولاني**

وقال الشيخ عبد الرحمن السعدي في مقدمة كتابه (القواعد الحسان المتعلقة بتفسير القرآن) ص١٣: «فهذه أصول وقواعد في تفسير القرآن الكريم, جليلة المقدار, عظيمة النفع, تعين قارئها ومتأملها على فهم كلام الله والاهتداء بها، ومخبرها أجل من وصفها، فإنها تفتح للعبد من طرق التفسير ومنهاج الفهم عن الله ما يغني عن كثير من التفاسير الخالية من البحوث النافعة..».اهـ

قال ابن عثيمين في أثناء شرحه لكلام شيخه: «**وثناء شيخنا عبد الرحمن بن سعدي على كتابه ليس بغريب؛ لأن ثناء أهل العلم على مؤلفاتهم لا يقصدون به الفخر والتفاخر على الخلق، إنما يقصدون شدّ الناس إلى قراءتها والالتفاف حولها، وله من سلف الأمّة قدوة.** يقول ابن مسعود رضي الله عنه: لو أعلم أن أحدًا تناله الإبل أعلم بكتاب الله منّي لرحلتُ إليه».اهـ

وجاء في كتاب (مواقف اجتماعية من حياة الشيخ عبد الرحمن بن ناصر السعدي) ص١٧٩: **«وقد يثني رحمه الله على مؤلفاته إذا رأى أن الكتاب يستحق الثناء والإطراء». اهـ**

ومن باشر الكتب الصفراء, أو عاشر الراسخين من العلماء, وجد لهذه الأمثلة مزيداً, وعلم أن ما قررناه في كتيبنا ليس جديداً.

وبذلك تعلم أن اتهامنا بالكبر والغرور من بعض السفلة, والخصوم الجهلة, **ما هو إلا مشاغبة على دعوتنا الرشيدة, ومنهجيتنا السديدة.**

يَقُولونَ لِيْ فِيْكَ انْقِبَاضٌ وَإِنَّمَا * رَأَوا رَجلاً عَنْ مَوْقِفِ الذُّلِّ أَحْجَمَا!**

والله من وراء القصد وهو يهدي السبيل, وحسبنا الله ونعم الوكيل.

وكتبه: تركي بن مبارك بن عبد الله البنعلي

1435 هـ - 2013 م

لا إله إلا الله

الله رسول محمد

الغرباء

للإعلام

صدى الحق

•AR•

www.alghurabamedia-ar.jimdo.com

twitter.com/alghuraba_ar

facebook.com/alghuraba.media.ar

youtube.com/alghurabamediaar